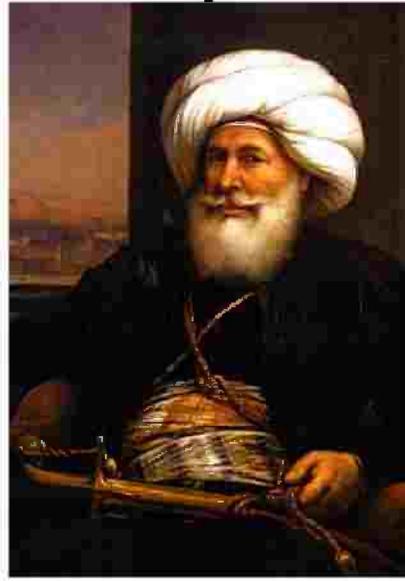


## ليامة



هل نستطيع تكرار التجربة؟



## أيام محمد علي

ونعود للسؤال الذي طرحناه في مقدمة الكتاب.. وأرجأنا الإجابة عنه للخاتمة.. عاد ليفرض نفسه علينا من جديد.. وهو

هل نستطيع اليوم إعادة تكرار تجربة «محمد علي»؟ بدايةً نقول أنه لا شك توجد هناك بعض ملامح التشابه بين الفترة التاريخية التي عاش فيها محمد علي وحقق تجربته.. وهي الفترة التي شهدت بدايات التطور الصناعي الأوروبي.. والفترة التي نعيشها حالياً.. والتي تشهد تغيراً حضارياً يتمثل في العولمة وثورة الاتصالات والمعلومات.

وهنا لا بد أن نضيف بعداً آخر للتجربة يتمثل في فترة حكم أحد أحفاده وهو:

### «الخدوي اسماعيل»



انقضى عصر «محمد علي» ومن بعده ابنه «إبراهيم» ووُطِدَت دعائم الدولة المصرية المستقلة.. ووُضِعَت البنية الأساسية للتعليم والنهضة العلمية والاقتصادية.. لكن جاء عهد عباس الأول «١٨٤٩ / ١٨٥٤» ليحدث انتكاس لكل هذا.. حيث توقفت حركة التقدم.. وفي عهد سعيد «١٨٥٤ / ١٨٦٣» شهدت مصر بدايات التدخل الأجنبي في شؤونها الداخلية.. بعد أن أقر حفر قناة السويس بواسطة شركة أوروبية.. وبداية عهد القروض الأجنبية التي أدت إلى كثير من الكوارث. ثم جاء عصر إسماعيل «١٨٦٣ / ١٨٧٩» خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ليشهد مرحلة جديدة من النهضة رغم الأخطاء التي أدت إلى التدخل الأجنبي في شؤون مصر المالية والسياسية.

## أيام محمد علي

والخديوي إسماعيل هو بن «إبراهيم باشا» بن محمد علي باشا.. وُلِدَ في «٣١ ديسمبر ١٨٣٠».. وتوفي في «٢ مارس ١٨٩٥».. وهو خامس حكام مصر من الأسرة العلوية.. ولكن كان من أكثرهم تميزاً.. حكم مصر خلال الفترة من ١٨ يناير ١٨٦٣ إلى أن خلعتة إنجلترا عن العرش في ٢٦ يونيو ١٨٧٩ وخلال فترة حكمه أعطى مصر دفعة قوية للحاق بركب الحضارة خاصةً في جانبها الأوروبي المعاصر آنذاك.

وكان إسماعيل هو الابن الأوسط بين ثلاثة أبناء لـ «إبراهيم باشا».. وبعد تعلمه في باريس عاد إلى مصر وأصبح وريثاً شرعياً للعرش بعد وفاة أخيه الأكبر محمد سعيد باشا في ١٨ يناير ١٨٦٣ الذي كان يتعمد دائماً إبعاد أخيه عن مصر ضماناً لسلامته الشخصية وذلك بإيفاده في مهمات عديدة أبرزها إلى البابا وإلى الإمبراطور نابليون الثالث وسلطان تركيا.

ثم أرسله في جيش تعداده ١٤ ألف مقاتل إلى السودان وعاد بعد أن نجح في تهدئة الأوضاع هناك.

وفي ١٨٦٦ حصل إسماعيل باشا علي لقب خديوي من السلطان العثماني بموجب فرمان خاص مقابل زيادة في الجزية المفروضة على مصر.. وتم بموجب هذا فرمان أيضاً تعديل طريقة نقل الحكم لتصبح بالوراثة لأكبر أبناء الخديوي سناً.

كما حصل عام ١٨٧٣ على فرمان آخر يتيح له استقلالاً أكبر عن الدولة العثمانية وعُرفَ بالفرمان الشامل.. وكان يمنحه حق التصرف بحرية تامة في شؤون الدولة ما عدا عقد المعاهدات السياسية وعدم حق التمثيل الدبلوماسي وعدم صناعة المدرعات الحربية مع الالتزام بدفع الجزية السنوية.

امتد نفوذ الإدارة المصرية في عهده على طول ساحل البحر الأحمر الغربي وبعض أجزاء من بلاد الصومال.

على درب جده.. يسير

D  
A  
Y  
S  
Of  
M  
O  
H  
A  
M  
M  
E  
D  
A  
L  
i

## أيام محمد علي

وفي عهده تمت العديد من الإصلاحات تتمثل فيما يلي:

- أتاح للشعب اختيار ممثليه في المجالس النيابية..
- قام بتحويل مجلس المشورة الذي أسسه جده محمد علي باشا إلى مجلس شورى النواب.. وافتتحت أولى جلساته في ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦..
- قام بتحويل الدواوين إلى نظارات..
- وضع تنظيم إداري للبلاد..
- أنشأ مجالس محلية منتخبة للمعاونة في إدارة الدولة..
- أصبح للمجالس المحلية حق النظر في الدعاوي الجنائية والمدنية وانحصر اختصاص المحاكم الشرعية في النظر في الأحوال الشخصية..
- ألغى المحاكم القنصلية واستبدلها بالمحاكم المختلطة..
- تم الانتهاء من حفر قناة السويس وإقامة احتفالاتها..
- أنشأ قصور فخمة مثل قصر عابدين وقصر رأس التين وقصر القبة..
- أنشأ دار الأوبرا الخديوية..
- أنشأ كوبري قصر النيل..
- بدأ استخدام البرق والبريد..
- عمل على تطوير السكك الحديدية..
- أضاء الشوارع ومد أنابيب المياه..
- عمل على زيادة مساحة الأراضي الزراعية..
- حفر ترعة الإبراهيمية في صعيد مصر..
- وترعة الإسماعيلية في شرق الدلتا..
- أنشأ العديد من المصانع من بينها ١٩ مصنعاً للسكر..
- قام بإصلاح مينائى السويس وميناء الإسكندرية..
- بنى ١٥ منارة في البحرين الأحمر والمتوسط لإنعاش التجارة..
- قام بإنشاء أول مدرسة لتعليم الفتيات في مصر.. وهي مدرسة السنية..

## أيام محمد علي

- أنشأ دار العلوم لتخريج المعلمين..
- أنشأ دار الكتب..
- أنشأ الجمعية الجغرافية ودار الآثار..
- ولأول مرة تعرف مصر ظهور الصحف الأهلية مثل الأهرام والوطن ومجلة روضة..

اهتم إسماعيل بإعادة تنظيم الجيش وإنهاض البحرية وإقامة العمران في مختلف المجالات.. وبعث النهضة العلمية والفكرية بإنشاء المدارس والمعاهد وتأسيس الجمعيات العلمية وتشجيع التأليف والصحافة ورعاية العلوم والآداب والفنون.

وواصل إسماعيل إرسال البعثات إلى البلدان الغربية المتقدمة من جديد.. وبدأ يوفد الطلبة منذ عام ١٨٦٣ الذين بلغ عددهم ١٧٢ طالباً.. واستمر جني ثمار البعثات العلمية على هيئة مزيد من تطوير التعليم ومزيد من العمران.

تولى إسماعيل الحكم ومعظم المدارس التي أنشأها «محمد علي» مغلقة.. لم يكن قد تبقى منها سوى مدرسة الطب والصيدلة ومدرسة الولادة ومدرسة حربية وأخرى ثانوية ومدرسة ابتدائية ومدرسة البحرية في الإسكندرية.. وبدأت نهضة جديدة في عصره في مجالات التعليم.. فبالإضافة إلى تأسيس مدارس حربية أسس عدة مدارس عليا منها مدرسة الري والعمارة «المهندسخانة» في العباسية عام ١٨٦٦.. مدرسة الحقوق عام ١٨٦٨ مدرسة دار العلوم ١٨٧٢ لتخريج أساتذة لغة عربية للمدارس الابتدائية والثانوية تم اختيار طلابها من المتفوقين من تلاميذ الأزهر.

وارتقت مدرسة الطب في عصر إسماعيل.. الذي شهد أيضاً إنشاء مدارس للبنات وعدد من المدارس الصناعية والمدارس الخاصة والمدارس الأوروبية.. وكان قائد النهضة التعليمية في عصر إسماعيل هو «علي باشا مبارك» الذي أسس دار العلوم عام ١٨٧٢ ودار الكتب عام ١٨٧٠ ومعملاً للكيمياء والطبيعة في درب

D  
A  
Y  
S  
O  
f  
M  
O  
H  
A  
M  
M  
E  
D  
A  
L  
i

## أيام محمد علي

الجماميز لتوسيع مدارك التلاميذ في العلوم الطبيعية واطلاعهم على تجاربها والمران على استعمال الآلات الرياضية والطبيعية.

وأعاد إسماعيل عهد البعثات العلمية إلى مدارس أوروبا ابتداء من عام ١٨٦٣ وأنشأ مدرسة لأعضاء البعثة في باريس بدل المدرسة التي أنشأها «محمد علي» لهذا الغرض وأُغلقت في أواخر عهده.. لكن المدرسة التي أنشأها إسماعيل أُغلقت بعد نشوب الحرب السبعينية<sup>(١)</sup>.

كان لأفراد البعثات التي أرسلها إسماعيل إلى أوروبا أثرهم على المجتمع المصري بعد عودتهم.. فقد تأثروا بالبيئة الأوروبية أكثر من المبعوثين الذين أرسلهم «محمد علي».. لأنهم كانوا شباباً في نحو العشرين من العمر.. بينما كانت بعثات «محمد علي» أكبر سناً بكثير.. وكانت أهم الدول التي استقبلت بعثات إسماعيل فرنسا وإنجلترا وإيطاليا.. وازداد عدد أفراد البعثات ازدياداً مطرداً في السنوات الأولى من حكم إسماعيل.. ثم أخذ العدد في النقصان بعد الارتباك المالي الذي حدث في السنوات الأخيرة من حكمه.

وكان ضمن ثمار البعثات العلمية والتحديث في عصر إسماعيل إنشاء عدد من الجمعيات العلمية مثل الجمعية الجغرافية الخديوية عام ١٨٧٥ الذي كان أول رئيس لها العالم الألماني «جورج شونفرت».. وجمعية «المعارف المصرية» لتشجيع البحث العلمي.. وتم أيضاً إنشاء المتحف المصري.. وظهرت الصحف العلمية والأدبية والحربية مثل مجلة «اليعسوب» الطبية عام ١٨٦٥ ومجلة «روضة المدارس» عام ١٨٧٠ لإحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة وترأسها رفاعة رافع الطهطاوي إمام البعثة الأولى في عصر «محمد علي».

وتقدمت الطباعة في عصر إسماعيل حيث أصبحت مطبعة بولاق من أكبر المطابع.

(١) نسبة إلى عام قيامها في سنة ١٨٧٠ ونشبت بين فرنسا وألمانيا.. ومن آثارها اضطراب الأسواق في أوروبا.

## أيام محمد علي

واتسم عصر إسماعيل بالنهضة العلمية والأدبية بسبب انتشار التعليم في المدارس والمعاهد وظهور طائفة من العلماء والأدباء ممن تخرجوا في المدارس والبعثات.. ونشاط حركة التأليف والترجمة والنشر.. وظهرت طائفة من العلماء المؤلفين والمربين فأنتجوا كتباً في الطب والرياضيات والتاريخ والفقهاء والتشريع.. وتولى أرقى المناصب الحكومية خريجون من المدارس والمعاهد والبعثات.. فكان من ثمار النهضة الارتقاء في عدد من المجالات مثل التعليم والري والهندسة والإدارة والقضاء والصحة والجيش والأسطول.

وكان إسماعيل مهتماً بتنمية ثروته الخاصة.. فقد كان يملك وحده مصنعين للنسيج بالقرب من القاهرة و ٢٢ مصنعاً للسكر تبلغ طاقتها الإنتاجية ١٥٠ ألف طن سكر سنوياً.. و٤ مصانع للأسلحة ودارين لصناعة بناء السفن.

### بتر التجربة وعزل إسماعيل

لكن أنى للقوى الاستعمارية أن تتركه ليستكمل مشواره للنهوض ببلده.. كمكلاً تجربة جده.. فحاربه بريطانيا سياسياً.. وتمكنت من عزله عن الحكم.. فسافر إلى نابولي بإيطاليا.. ثم انتقل بعدها للإقامة في الأستانة.. وتوفي بها في ٢ مارس ١٨٩٥ في قصر إمبرجان في إسطنبول الذي كان منفاه أو محبسه بعد إقالته.

إذن نحن أمام تجربتين.. أو تجربة واحدة على مرحلتين عاشتهما مصر في عهد «محمد علي» الجد.. والخديوي «إسماعيل» الحفيد.. ويجب أن نتخذ منهما نموذجاً إرشادياً للإجابة عن السؤال..

وعن قناعة تاريخية نقول: نعم.. نستطيع تكرار التجربة..

فكل معطياتها مازالت قابلة للتطبيق حتى في ظل الواقع المصري.. والعربي الراهن.. فقد كان التحديث في نهاية القرن التاسع عشر في مصر انتقالاً من الوضع الحر في الفلاحي وتطويره بجلب العلوم والتقنيات الأوروبية الجديدة ونظم الحكم في المدن وبناء جيش قوي لحماية الاستقلال..

D  
A  
Y  
S  
O  
F  
M  
O  
H  
A  
M  
M  
E  
D  
A  
L  
i

## أيام محمد علي

والوضع الراهن يشهد انتقال العلم والتقنية الصناعية التقليدية إلى تسارع غير معهود في مجالات حديثة تماماً مثل الاتصالات وعلوم التكنولوجيا.. وغيرها. لكن ما ينقصنا بالفعل هو وجود سلطة لديها الرغبة على فعل ذلك.. وتطوير مجمل الأوضاع الاقتصادية والثقافية.

### المراد يخرج من قممته

ومع تنامي ظاهرة الثورات الشعبية في مصر وكافة الدول العربية.. نستطيع القول أن المراد خرج من قممته.. والشعب صاحب المصلحة المباشرة في التحديث أصبح هو فرس الرهان.. لكن فرس يعلوه ويقوده «فارس الثورة» ولجامه هو «إرادة التغيير» والبداية لوضع الفرس والفارس على الطريق الصحيح.. وطريق التحديث.. لا بد أن يكون دعم التعليم والبحث العلمي.. وهو ما نتمنى أن نراه في المستقبل البعيد..

